الأهرام

مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: المصور

التاريخ: ١٩٧٥/١٢/٥

المسيرة الطويلة
من
الهزيمة إلى النصر

خمس سنوات مع الرجل الذى أحال هزائمنا إلى انتصارات

مصر نادته فلبى النداء

● لاشيء يسعد الكاتب اكثر من ان يكون دائما صادقا مع نفسه ومع الاخرين ، لايكتب الا مايمليه عليه ضميره ولا يقول الا مايعتقد انه الحق والصدق لايخشى فيما يكتبه لومة لائم ، ولا ينتظر لقاء مايقوله جزاء ولا شكورا

ولا شيء يسعد الكاتب - في نفس الوقت - اكثر من ان يعرف قراؤه عنه ذلك فيحترموا رايه اذا اخطأ او اصاب ، وكل كاتب يحترم نفسه وقراءه وقدسية الكلمة لابد وان يتعرض في كثير من مراحل حياته الى الضغط الادبي او المادي الذي قد يحيل حياته الى جحيم لايطاق كما انه لابد وان يتعرض في الوقت ذاته الى كثير من المغريات ، التي يمكن ان تحيل حياته الى جنة من الجنان ، بالمعنى الذي تعارف عليه الناس ، والكاتب الصادق الامين هو الذي لاتستطيع اية قوة في الوجود - مهما طغت وبغت - ان تؤثر في مجرى السطور التي يكتبها أو التي لا يكتبها لان الذين يملكون القوة والسطوة والجبروت يعرفون عنه انه اذا كتب فلن يكتب غير الحق وغير الصدق ، وهم لهذا لا يطلبون منه الا ان يسكت ، ويمتنع عن الكتابة ، والكاتب الصادق الامين لايكون الطريق امامه مفروشا بالورود والرياحين فما اكثر مايتعرض له من ضغوط ، وما اكثر ما يحرم نفسه واهله واولاده وهو يسير في هذا الاتجاه من القوت الضروري لان الذين يملكون سيف المز وذهبه والذين تغرهم دائما مظاهر الحكم وبريق الجاه لايضايقهم في حياتهم اكثر من رجل يعتز برايه : يحترم نفسه كما يحترم غيره .. لايستطيع احد ان يغير له مبدءا، او معتقدا حتى ولو عرض عليه ذهب الارض كله ، وفي احيان كثيرة - كما حدث في بعض الاحيان في مصر كان القابض على رايه كالقابض على الجمر سواء بسواء .. يرى امامه النكرات والامعات التي تفوقت في اللعب على كل الاحبال والاكل على كل الموائد تركب السيارات الفارهة وتقتني العمارات الشاهقة وتلعب بالاصفر الرنان كما يلعب - على الشاطيء الفسيح - الاطفال الصغار بحبات الرمال التي لايعرفون عددها كما لايعرفون مصادرها بينما ذلك القابض على الراي والجمر معا لايحصل هو وزملاؤه ممن يحترمون انفسهم واقلامهم على القوت الضروري - اذا حصلوا عليه - الا بشق الانفس وقسوة المعاناة في الحياة

وفى بعض الاحيان كانت تلك النكرات والامعات تبالغ فى استخدام السلطة المتاحة لها حيث تتحكم ظلما فى مصائر الزملاء الذين يرفضون بيع انفسهم لكل صاحب سلطة وتقودهم فى بعض الاحيان اما الى السجن واما الى الطريق العام بلا عمل ، بل بلا تصريح عمل

وكان من اثر ذلك ان وقر ـ بكل اسف ـ فى اذهان البعض ان لكل شىء فى بلاط صاحبة الجلالة ثمنه : كل كلمة بسعر محدد ، وكل سطر يستهدف تحقيق غرض خاص اليوم او غدا ، وقد خيل للبعض هنا فى مصر او فى خارج مصر ، ان صحافتنا قد خلت من كتاب الراى الذين يؤمنون بقدسية الكلمة ويرفضون دائما ان تكون الصحافة وسيلة من وسائل ارضاء الحاكم ، ويوم ان يكتب تاريخنا الصحفى على حقيقته سيعرف شعبنا فى مصر وفى البلدان العربية الشقيقة الكثير عن اولئك الجنود المجهولين الذين وقفوا الكثير من المواقف المشرفة التى ينبغى ان تسجل لهم بحروف من نور والذين يجب ان نطلق عليهم بحق شهداء الراى الحر والعقيدة الثابتة .

ولقد عانت مصر كثيرا بسبب غياب الكلمة الحرة وطغيان صحافة التمجيد والحمد والثناء ، ولم تستطع الصحافة ان تؤدى دورها فى ارشاد الحاكم عن العيوب والاخطاء ، ولقد قلت اكثر من مرة ان من اسباب فشلنا فى تحقيق ما اردناه من خير لشعبنا كما ان من اسباب فشلنا المرة تلو المرة امام عدونا ان الاقلام كانت عندنا مقيدة تماما لاتستطيع الا ان تمدح من فى السلطة ولا تستطيع الا ان تذم من خرج من ظلال دائرة السلطة .

ولقد كان ـ وتلك حقيقة تاريخية نعتز بها ونفتخر ـ ان من نعم الله على شعبنا بصفة عامة وعلى صحافتنا بصفة خاصة ان قائد هذا الشعب وزعيمه فى اخطر مراحل تطوره وكفاحه كان ولا يزال كاتبا حرا يؤمن بالكلمة الحرة الى ابعد حدود الايمان ، يحترم دائما وابدا كل صاحب راى وان اختلف واياه فى الراى ، كما انه لم يحاول ـ ولو مرة واحدة ـ ان يملى على كاتب او صحفى وجهة نظر خاصة وكما قلت اكثر من مرة ان بعض الاراء التى تنشر فى صحفنا تختلف تماما

مع الاراء التى نادى بها الرئيس السادات بل وكتبها ورددها فى احاديثه وذكرياته ومذكراته واقرب مثال على ذلك ماجاء فى ورقة اكتوبر التى قدمها الرئيس السادات الى شعب مصر ورفض فيها نظرية الحزب الواحد وتعدد الاحزاب ، ومع ذلك راينا الكثير من المقالات التى تنشر فى مصر تعارض ما ارتاه الرئيس السادات وتناقضه ولم يحدث ابدا ان سئل واحد من اصحاب تلك الاراء المعارضة لماذا كتبت ماكتبته ؟ بل على العكس فان الرئيس السادات فى كل لقاءاته بالكتاب والصحفيين المصريين عندما يلتقى بهم كزميل قديم لا كرئيس للجمهورية يحرص دائما على التاكيد على حرية الراى وعلى ضرورة الاستفادة من كل راى معارض ... بل اكثر من هذا وذاك ، فان البعض منا يكتب فى الخارج الكثير من المقالات ويلقى الكثير من التصريحات التى تتعارض وسياسة الدولة فى مصر ومع ذلك فان احدا لم يوجه اى لوم الى اصحاب تلك المقالات او التصريحات لان لكل الحرية فى ابداء مايرى من آراء متعارضة مع الخطوط الرئيسية للدولة !

***

ولعل من افداح الاخطاء التى يقع فيها بعض اخواننا الصحفيين والكتاب فى بعض الاقطار العربية الشقيقة انهم لم يفهموا حرية الصحافة فى مصر على حقيقتها فهم فى احيان كثيرة يحملون مصر الدولة ومصر النظام ومصر الشعب مسئولية بعض الاراء الخاصة لبعض كتابنا وصحفيينا ولو انهم فهموا حق الفهم وادركوا حق الادراك مدى ماتتمتع به الصحافة فى بلدنا من حرية كاملة لحملوا كل كاتب او كل صحفى تبعة رايه دون ان يحملوا الشعب او النظام او الدولة تبعة تلك الاراء التى تنشر لهذا الكاتب او ذاك .

وفى كل اللقاءات التى تضمنا وبعض الاخوة من الكتاب والصحفيين العرب سواء فى القاهرة او العواصم العربية الاخرى نؤكد دائما على تلك الحقيقة التى مؤداها انه لم يعد فى مصر الان الكاتب الذى يعبر عن راى الدولة ، كما انه لم يعد فى مصر الان الصحيفة التى تنطق باسم النظام فنحن مؤمنون بمصلحة الدولة ، ملتزمون بقضايا الشعب نعتبر انفسنا جزءا لا يتجزأ من النظام الذى ارتضاه الشعب ويقوده بحكمة ووطنية انور السادات .

ولقد درجت بعض الصحف المعارضة لمصر على ان تحتفى فى صفحاتها الاولى بكل راى يختلف مع بعض الخطوط الرئيسية للدولة تنشره بعض الصحف فى مصر وبعض تلك الصحف التى تنطق باسم احزاب معينة تخطىء خطأ فاحشا لانها تستغل حرية الصحافة فى مصر استغلالا سيئا ولو انها كانت منصفة لنفسها ولقرائها ، لما عمدت الى التباهى بنشر تلك الاراء المعارضة التى تنشر فى مصر ، لان نشر تلك الاراء يؤكد على حقيقة هامة هى ان فى مصر حرية صحافة بعكس ما عندهم حيث لا يظهر ابدا فى اية صحيفة او مجلة الراى الاخر لان صاحب الراى الاخر قبل ان ينشر رايه سوف يكون قد ذهب الى السجن !

ضحكت طويلا - وشر البلية مايضحك - عندما وجدت فى صدر صحيفة حزبية تصدر فى احدى العواصم العربية . مانشيت على خمسة أعمدة يتضمن راى صحيفة طلابية مصرية فى انتخابات اتحادات الجامعات المصرية .. هللت تلك الصحيفة الحزبية لذلك الراى ونشرت تلك الصحيفة الحزبية افتتاحية الصحيفة الطلابية .. نشرت ماجاء فى تلك الافتتاحية كما نشرت بالزنكوغراف وعلى ثلاثة اعمدة الصفحة الاولى من تلك الصحيفة الطلابية وكانها وثيقة من اخطر الوثائق السياسية ثم راحت تلك الصحيفة الحزبية تتحدث عن تجربة الديمقراطية فى مصر ماشاء لها الهوى ، ولو ان تلك الصحيفة الحزبية الضيقة الافق كانت أمينة مع نفسها وامينة مع قرائها لاعتبرت نشر ذلك الكلام فى صحيفة « صوت الطلاب » المصرية فى مصر وتوزيع أعداد تلك الصحيفة وعدم مساءلة احد من المشرفين على تلك الصحيفة مفخرة من مفاخر الديمقراطية فى مصر . ان المعنى الذى يحمله السماح بنشر تلك الاراء المعارضة والعنيفة فى نفس الوقت يؤكد ان حرية الصحافة فى مصر قد أصبحت حقيقة ولم تعد شعارا يرفع للمتاجرة به ونحن نسأل المشرفين الحزبيين على تلك الصحيفة الحزبية : هل تسمحون بنشر مثل تلك الاراء عندكم ؟ هل تعطون للصحافة طلابية او غير طلابية الحرية التى اعطيت لها فى مصر ؟ مجرد سؤال نعرف جوابه مقدما وهو المزيد من الهجوم على مصر وصحافة مصر وسياسة مصر ! اما نحن فلا نقول اكثر مما قلناه وهو اننا نؤمن بسياسة انور السادات كما اننا نثق به ثقة مطلقة

.. نؤمن بسياسته ونثق به لا لانه رئيس الجمهورية ولا لانه رئيس الاتحاد الاشتراكى ولا لانه قمة المسئولية السياسية فى مصر وانما نؤمن بسياسته ونثق به لاننا عرفناه حق المعرفة قبل ان يكون رئيسا للجمهورية وقبل ان يكون رئيسا للاتحاد الاشتراكى وقبل أن يكون قمة المسئولية السياسية فى مصر .. عرفناه مناضلا حرا ، وفيا ، اعطى لمصر حياته كلها وضحى فى سبيلها منذ مطلع شبابه الباكر كما لم يضح احد مثله .. عشق مصر واعطاها كل نبضة من نبضات قلبه ومنحها كل دقيقة من دقائق حياته ، والذين استمعوا الى انور السادات وهو يتحدث الى شعب مصر فى تليفزيون مصر يوم عيد ميلاده عن كفاحه وتضحياته يعرفون كم قاسى هذا الرجل وكم ضحى فى سبيل مصر

وابادر فاقول تعليقا على ذلك الحديث الانسانى الرائع الذى كان من اكثر احاديث الرئيس السادات نجاحا وشعبية ان انور السادات لم يقل فى حديثه هذا الا النذر اليسير عن كفاحه ونضاله والذين كان لهم شرف المساهمة فى العمل الوطنى خلال تلك المرحلة التى تعتبر من اكثر مراحل العمل الوطنى اشراقا ، وثورية يعرفون تماما ان دور انور السادات فى معارك الكفاح الوطنى كان أكثر بروزا واكبر تاثيرا مما اشار اليه الرئيس فى حديثه ، كما ان التضحيات التى قدمها انور السادات فى الفترة مابين عامى ١٩٣٨ ، ١٩٥٢ هى اضعاف اضعاف ماذكر .

وبين يدى الان وانا اكتب هذه الكلمات كتيب صغير الحجم اصدره الطيار حسن عزت الذى كان اخا وزميلا لانور السادات فى مرحلة من مراحل نضالنا الوطنى وكان من بين الذين اشتركوا فى تقديم ذلك الكتاب « عزيز على المصرى » ، و « انور السادات » و « عبد اللطيف بغدادى » و « خالد محيى الدين » و « احمد حسن الباقورى » و « فتحى رضوان » . فى هذا الكتاب تسجيل لبعض ماقام به انور السادات فى ميدان الكفاح الوطنى ، مثلا ، قصة تشكيل اول لجنة من الضباط الاحرار التى اشترك فيها انورالسادات واشارة الى بعض التضحيات التى كان يقدمها هؤلاء الضباط من اجل مقاومة الاحتلال البريطانى : كان السادات ـ كما يقول حسن عزت ـ اكثر هؤلاء الضباط نشاطا

واخذ يضم بدوره ضباطا من سلاح الاشارة والبيادة وغيرهم . وكان انور السادات مندوبنا فوق العادة كما كان همزة الوصل بيننا وبين عزيز المصرى وغيره »

وفى ذلك الكتاب ايضا قصة النطق الملكى السامى الخاص بالاستغناء عن خدمات انور السادات من الجيش المصرى ، وقصة اعتقاله بعد الاستغناء عن خدماته مباشرة وكيف دخل انور السادات سجن الاجانب بعد اعتقاله مباشرة ولم يكن معه الا حقيبة صغيرة من الجلد المضغوط كالتى يستعملها طلبة المدارس الابتدائية لم يكن بها الا سجادة قديمة ومصحف ممزق الغلاف .

وعندما سأل حسن عزت زميله انور السادات داخل السجن : « وحتعمل ايه يا انور فى عيالك وبيتك » انصرف انور الى الوضوء واجاب : لهم رب ثم قام للصلاة ، وبعد الصلاة سحب مصحفه واخذ يرتل القرآن بصوت خاشع

***

ويروى حسن عزت الكثير عن الحياة فى سجن الاجانب ومعتقل الزيتون ، ومعتقل مافوسه وكيف اصيب انور فى ساقه من « سونكى » احد الجنود ، وكيف هب المعتقلون لنجدة انور « ودارت معركة رهيبة غير متكافئة بين المعتقلين وادارة المعتقل وكيف اطلق الجنود اكثر من مائتى طلقة لقتل المعتقلين »

وكان انور قد ثار على الجنود والضباط الذين كانوا يشرفون على المعتقل لانهم وجهوا اهانات كثيرة الى الصاغ رزق صليب الذى كان احد المعتقلين .

ويروى حسن عزت فى كتابه هذا قصة هروب انور السادات من المعتقل وكيف عمل شيالا على سيارة نقل تحمل الطرود لحساب الصليب الاحمر على خط مصر بور سعيد ، كما يروى بالدقة ومزيد من التفصيلات بعض ماتحمله انور السادات خارج المعتقل وداخله

وكان السادات وهو فى كل تلك المحن لم يكن يبحث عن مساعدة اساتذته وزملائه فى الكفاح الوطنى — كما فعل بالنسبة لعزيز على المصرى — بل كان يبحث حتى عن اقارب الشهداء الذين سقطوا فى ميدان الكفاح الوطنى مثل الشهيد سعودى الذى كان أول شهيد للضباط الاحرار والذى سقطت طائرته على مقربة من مرسى مطروح بمدافع الالمان المضادة للطائرات خطأ ، وكان فى طريقه الى روميل يحمل وجهة نظر الوطنيين الاحرار :

لقد ظل السادات وهو مطارد من البوليس يبحث عن شقيق ذلك الطيار الى ان تمكن من العثور عليه ، وكان يزوره ويقدم اليه العون بل ظل متصلا به ـ بعد ذلك ـ الى ان اكمل تعليمه .

والجدير بالذكر أن أنور السادات قد أنصف جمال عبد الناصر يرحمه الله ـ ووفاه حقه من المديح والثناء ، وازاح الستار عن جهود جمال عبد الناصر قبل قيام الثورة وهى تلك الجهود التى حاول البعض التقليل من شانها فكان السادات بذلك الانصاف ـ كالعهد به دائما ـ مثالا للوفاء .

واستسمح القارىء فى ان انقل بعض فقرات من مقدمة كتاب انور السادات ـ صفحات مجهولة كتبها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عن زميله ورفيقه انور السادات :

« ان شخصية انور السادات لجديرة بالاعجاب ، خليقة بالاطراء ، فعبقريته العسكرية الممتازة وشجاعته ورباطة جاشه ، واخلاصه ، وتفانيه فى خدمة المثل العليا الى جانب قوة ارادته ، وتنزهه عن الغرض ، ورقة عواطفه وميله الغريزى للعدالة والانصاف .. كل هذه الصفات جعله اهلا للقيام بدور هام فى التمهيد لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والسير بها قدما فى سبيل النجاح ، لقد استخدم انور السادات هذه السجايا فى جميع ادوار حياته كما احسن استخدامها فى خدمة القضية الوطنية فنجده قد سجن فى شهر نوفمبر ١٩٤٢ بامر العدو المستعمر» ثم اعيد اعتقاله عام ١٩٤٤ لنشاطه الوطنى ، ولكم تحمل من الوان الحرمان والتعذيب فلم تهن عزيمته ولم تتزعزع عقيدته لا ولم يفت ذلك فى عضده بل ازداد رسوخا وايمانا ولا غرو فعلى قدر اهل العزم تاتى العزائم : فكان له من سنوات سجنه الطويلة فرصة للتفكير والتفكير مليا حتى رجع بتمعنه وتاملاته الى الاف السنين الخوالى وطالع ماكان من خلاله من مطامع العالم التى شخصت وتجهمت حول هذا البلد الطاهر .

استاذن القارىء فى ان انقل له سطورا من كتاب صفحات مجهولة للرئيس انور السادات عن الحياة فى معتقل المنيا :

« كنت قد نقلت الى معتقل المنيا ، وكنت الوذ عن نفسى هم التفكير فى العالم الخارجى بالقراءة اقطع بها وقتى وكان هم التفكير فى خارج المعتقل هما ثقيلا

مثيرا للنفس باعثا للكابة والجنون فمثلى فقير لايملك غير عمله وله زوج واولاد يعيش فى المعتقل لا يعرف لاهله معينا غير الذى خلقه وخلقهم وفى طريقى اليومى ، الى مكتبة المعتقل التقيت بالمرحوم الشهيد يوزباشى محمد وجيه خليل الذى استشهد فى حرب فلسطين وكان من دفعتى وينحنى بى الصديق ناحية ليسر فى اذنى ان التشكيل قد رتب لعائلتى عشرة جنيهات فى كل شهر وانه جاء يطمئننى بعد ان عزت على الجميع زيارتى وكانت هذه العاطفة الصادقة من زملائى هى اسمى ما يمكن ان يشعر به مثلى فى ظلمة الاعتقال : فقد يعرف الذين زاولوا الكفاح من اجل فكرة انهم لا يضعفون امام السجن ، ولا يضعفون امام التعذيب وقد يخيل اليهم فى لحظات الحماس والانفعال انهم لن يضعفوا امام شىء فى الوجود ولكنهم فى هذا واهمون ، فهناك الشىء الذى يضعفون امامه ، والذى لا يملكون حياله شيئا الا الفرار الفرار من الواقع والفرار من التفكير ، الفرار من المطارق التى تطرق الراس والقلب والضمير وتحيل الجبار وهما ضعيفا يكاد يستسلم ويكاد يستغيث لولا كبرياء الكفاح ويقظة الفكرة المتاصلة فى نفسه ومثالية الهدف ولعلك عرفت الان ، ماهو الشىء الذى يضعف امامه المجاهدون وانه الولد ، الطفل : العيال : هؤلاء الصغار الودعاء الذين تدفعهم دفعا الى مرارة الكفاح ، وتاخذهم اخذا على الصبر ، والحرمان والتقشف ولما برحوا بعد مهاد الطفولة ولما يعرفوا بعد مراح الصبا ! هولاء هم نقطة الضعف فينا ، وهى نقطة ضعف اعترف بها ولا تخجلنى لاننى انسان .

وقد كنت احتمل ان يحرم اطفالنا من رعاية ابيهم ولكننى كنت اصبر على حرمانهم من ضرورات الحياة ، وكانت هذه الجنيهات العشرة هى العون الوحيد الذى اقبله لاطفالى لانها لم تصدر عن عطف ولا اشفاق ، وانما صدرت عن فكرة مشتركة وتكافل بين مكافحين » ومن هنا بدا ايمان السادات بالحريات ، وسيادة القانون ومن هذه الصفحات ينجلى لنا كيف عشق السادات مصر واحبها ولبى نداءها عندما راحت تطلب الحرية والاستقلال

« وبعد » فهل نجحت فى الاجابة عن اسئلة زميلنا الصحفى اللبنانى الذى راح يسالنى ونحن فى طريقنا الى منى بعد ان ادينا معا طواف الافاضة : لماذا تحبون السادات كل ذلك الحب الفياض ولماذا تؤمنون بسياسته الى هذا الحد من الايمان ولماذا تثقون بقيادته كل تلك الثقة المطلقة

صبرى أبو المجد